

# البعد العالهي في الخطاب القرآني

بقلم: عبد الكريم حامدي

في قوله تعالى: (ق والقرآن المجيد) في ١٠، فتأقسم بالقرآن كناية عن تنويه بشأنه، لأن القسم لا يكون إلا بعظيم عند المقسم، فكان التعظيم من توازم المقسم، ووصف القرآن بالمجيد، لكونه مشتملاً على أعلى المعاني النافعة لصالح الناس (١)، وكوصفه بالهيمنة في قوله: (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه) المائدة: ٤٨، أي شاهداً وقيماً على الكتب السابقة عليه، وذلك لما فيه من صلاح للبشر في العاجل والأجل (٢). يقول سيد قطب: لقد جاء هذا الكتاب ليشره أمة ويتنظم مجتمعا، ثم لينشره عالمًا ويقدم نظاماً، جاء دعوة عالمية إنسانية لاتعصب فيها لشيئية أو أمة أو جنس (٣) ويقول: إنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي إنساني، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمي، وأنه الرسالة الأخيرة التي تبس بعدها من السماء رسالة (٤) وذلك لأن القرآن الكريم، وحده، يحكم كونه نصاً إلهياً مطلقاً، هو الصادر على استيعاب وتصويب مختلف مناهج العلوم العقلية والاعتقادية والطبيعية والاجتماعية والإنسانية وغيرها وتقويتها كدليل، وهو وحده يحكم عاقبة رسالته الصادر على استيعاب مختلف الأساق الحضارية وتصويبها وتقويتها وترقيتها (٥).

## ثانياً: عالمية الرسالة

ومن الدلائل على البعد العالهي في الخطاب القرآني، اختياره أن الرسالة الحمدية جاءت للعالمين وأنها صالحة لكل زمان ومكان، قال

السماوية الماضية إلى أن يربط الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: (إن هو إلا ذكر للعالمين) ص: ٨٧، أي: ما القرآن إلا تذكير لجميع الناس ينتفعون به في صلاح اعتقادهم وطاعة الله ربهم، وتهذيب أخلاقهم، واداب بعضهم مع بعض، والمحافظة على حقوقهم، ودوام انتظام جماعتهم، وكيف يعاملون غيرهم من الأمم الذين لم يتممهم (٦) وقد وصف الله القرآن بعدة أوصاف تدل على بعده العالهي في الهداية والإصلاح، وأنه أفضل الكتب صلاحاً وإصلاحاً، وأكملها لكل الأمم ولجميع الأزمنة، كوصفه بالكريم في قوله: (إنه لقرآن كريم) الواقعة: ٧٧، فالآية فيها إشارة إلى تفصيل القرآن على أفراد نوعه من الكتب الإلهية، مثل: التوراة والإنجيل، والزبور، وفضله عليها بأنه فاقها في استيفاء أغراض الدين وأحوال المعاش والمعاد وأثبت العقائد بدلائل التكوينية والإبلاغ في دحض الباطل دحضاً لم يشتمل على مثله كتاب سابق، وبخاصة الاعتقاد، وفي وضوح معانيه وفي كثرة دلالاته مع قلة الفاظه، وفي فصاحته، وفي حسن آياته، وحين مواقعها في السمع، وذلك من آثار ما أراد الله من عسوم الهداية والصلاحية لكل أمة، ولكل زمان (٧). وكوصفه بالعلو والحكمة في قوله: (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) الزخرفة: ٤، وذلك لما حواد من الحكمة، ولما فيه من صلاح أحوال النفوس والقوانين المقبسة لنظام الأمة (٨). وكوصفه بالمجيد،

والقائم عليه، لا يعني أقول شمهه ونوره ونهية سلطانه، بل سيعود لربوع الأرض وستلعم شعوب العالم وقارهه مرة أخرى بهداه مصداقاً لقوله تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) الفتح: ٢٨، إن الظهور لهذا الدين أت لامحالة حسب الوعد الإلهي، وهو الذي يتلاءم مع البعد العالهي الذي دلل عليه نصوصه وتشريعاته في القرآن الكريم. إن هذه الدراسة تكشف جانباً من تلك الحقيقة في هذا الوقت الذي تكاليد فيه القوى المعادية على المسلمين التي تحاول فرض نظامها العالهي عليهم، جاهلة أو متجاهلة أن هذه العولة غريبة في أهدافها ومقاصدها عن قيم الشعوب ومياليها وثقافتها، إذ تهدف إلى طمس خصوصياتها وهويتها، وهذا ما يتناقض مع رسالة القرآن العالمية التي جاءت للحفاظ على قيم الشعوب الدينية والثقافية التي لا تتعارض مع أصوله ومبادئه، ومن ثم فإن عالمية القرآن السمحة في البديل لما تعانيه الشعوب من قهر واستبداد، وفيما يلي أبرز أهم مظاهر ذلك البعد العالهي في الخطاب القرآني.

## أولاً: عالمية الكتاب

ما يدل على البعد العالهي في الخطاب القرآني، أن الله تعالى ختم الكتب السابقة بكتاب عام لجميع الأمم والشعوب على اختلاف أجناسهم، ولغاتهم، وعبادتهم، وقضائهم، وأن هذا الكتاب، القرآن، مهيب على ساويرته البشرية من التعاليم

من أبعاد القرن وأهدافه التي أنزل لتحقيقها، صلاح العالم بجميع مكوناته، وفي مقدمها الإنسان، ومن ثم جاء الخطاب القرآني مصبوغاً في أسلوبه وتشريعاته بما يحقق ذلك البعد الأعظم، وقد جاءت الرسائل السماوية السابقة خاصة لأقوام ومجتمعات إقليمية، محدودة الزمان والمكان والتشريع، إلى أن جاءت الرسالة الحمدية، فأرادها الله أن تكون خاتمة الشرائع وهيمنة عليها فاستوعبت بذلك الزمان والمكان والإنسان، بما تضمنته من بعد عالمي لشؤون البشرية وقضاياها في جميع المجالات الخرفية والعمرائية، وقد تجسد ذلك البعد عبادياً وواقعياً طوال العرون الماضية التي انتشر فيها الإسلام وعم ربوع الأرض شرقاً وغرباً، ولم يعجز بشرائه التشريعي عن استيعاب قضايا الشعوب، بل وجدت فيه الرحنسة والعسول والإنصاف والحرية شعانت في طله مكرمة عزيزة، وإن الغياب العالهي لحكم الإسلام وشريعته بسبب ضعف أهله

**المتتبع للخطاب القرآني يجده مرة يخاطب الإنسان  
ومرة يخاطب الناس ومرة يخاطب المؤمنين**







## القسم بالقرآن كناية عن التتويه بشأنه لأن القسم لا يكون إلا بعظيم

بالعالية، حيث صيغ صياغة العموم والشمول المستوعب للإنسان.

والتسبيح للخطاب القرآني يجده مرة يخاطب الإنسان، ومرة يخاطب الناس، ومرة يخاطب المؤمنين.

فخطابه للعموم الإنسان، كقولته في معرض الوصية بالوالدين (ووصيتنا للإنسان بوالديه إحساناً) الأحقاف: ١٥، وكقولته في معرض بيان مسؤولية الإنسان عن نتائج أعماله: (وإن ليس للإنسان إلا ما سعى) النجم: ٣٩، وقولته: (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فمستلقب) الانشقاق: ٦، فالوصية والمسؤولية تخاطب عموم البشر في هذا الكون وإنما وجدوا، فكل إنسان مطالب بالإحسان إلى والديه، وكذلك كل إنسان مسؤول عن نتائج أعماله من خير أو شر.

وخطابه للعموم الناس على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ولغاتهم وأوطانهم، كالأمر بعبادة الله تعالى في قوله: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم) البقرة: ٢١، وكالأمر بالأكل من الحلال الطيب في قوله: (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً) البقرة: ١٦٨، وكالأمر بالتقوى في قوله: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة) النساء: ١، فهذه النصوص تخاطب الناس عامة، فهم مأمورون بعبادة خالقهم الذي خلقهم، ومأمورون بالأكل مما حلال الطيب ومأمورون بالخوف منه وتقواه.

وأما خطابه للمؤمنين، فهو عام أيضاً لكل من تحقق فيه وصف الإيمان، في أي مكان وزمان من العالم، كخطابهم بفرض القصص

تعالى، (تبارك الذي منزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) الفرقان، ١، فالآية ترسم العناية من تنزيل القرآن على الرسول، عليه الصلاة والسلام، وهو كونه رسولا للعالمين، فالرسالة تدل على شيوع تلك العالمية منذ مطلع البعثة النبوية، بما تحمل من طابع عالمي ورسائل إنسانية كاملة ذات بعد عالمي (١)، ويقول: (قل يا أيها الناس إنني رسول الله إليكم جميعاً) الأعراف: ١٥٨، فالآية تبيّن باللفظ الصريح عالمية الرسالة النبوية، ومعنى ذلك أنها لا تختص بشعب، ولا أرض، ولا جنس، بل هي للناس جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، بما تضمنته من فوائد تتناسب وتطور البشرية الأخير، وكمال أصولها العرفية، وقابلتها للتطبيق المتجدد في فروعها العملية، وكذا ملائمتها للقطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً (٢)، وقولته: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء: ١٠٧، فالتعريف في قوله للعالمين، يفيد الاستفراق فهو شامل لكل ما يصح عليه اسم العالم، وتقيد صيغة الخطاب إن الرحمة منحصرة في الرسالة الخاتمة، ومعنى ذلك أنها أوسع الشرائع رحمة بالناس، فإن الشرائع التي سبقتها، وإن كانت

تصنف بالرحمة، إلا أنها لم تكن رحمة عامة، إنما لكونها لا تتعلق بجميع أحوال المكلفين، كشرعية إبراهيم، عليه السلام، كانت رحمة خاصة بحال الشخص في نفسه، وليس فيها تشريع عام وقريب منها شرعية عيسى، عليه السلام، وأما لأنها تشمل على أنواع من المشقة في أحكامها اقتضتها حكمة الله تعالى في سياسة الأمم (٣)، يقول الشيخ القرضاوي: (إنها رسالة لكل الأزمنة والأجيال ليست رسالة موقوتة بعصر أو زمن مخصوص، ينتهي أثرها بانتهائه، كما هو الشأن في رسائل الأنبياء السابقين عن محمد، صلى الله عليه وسلم، وهي كذلك غير محدودة بمكان، ولا بأمة، ولا بشعب، ولا بطبقة، إنها الرسالة الشاملة التي تخاطب كل الأمم، وكل الأجناس، وكل الشعوب، وكل الطبقات) (٤).

### ثالثاً: عالمية الخطاب

ومما يدل على العبودية العالمي للخطاب القرآني، تميز خطابه





كما جاء في قوله: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) آل عمران: ٣٣. فالآية تشير إلى الخطاب الاصطفائي الحضري الذي يستند مادته ثم بقوله نوح، ثم بإخلائه قومه نوح، ثم إبراهيم، وإلى يعقوب والأسباط ثم آل عمران من ذرية إبراهيم، وإلى يحيى بن زكريا ثم تحول الخطاب إلى ذرية اسماعيل بن إبراهيم انتهاءً بمحمد خاتم النبيين عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام. فكل الرسل والرسالات المذكورة في القرآن إنما جاءت بخطاب الهي حضري اصطفاي ينتهي ببعثة خاتم الأنبياء.

دور الخطاب العائلي، ويبدأ ببعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى قيام الساعة، ومن ثم فإن ختام النبوة ليس مجرد توقيك زمني حسي، بل ختامه يقترن بحدث كبير، وهو انتهاء الخطاب الإلهي الحضري الاصطفائي لينطلق الخطاب العائلي من الأرض المحرمة وليس من الأرض المقدسة، ويبدأ بالتخصيص العربي نهاية للاصطفاء وافتتاحاً

لعائليته في الوقت ذاته (١٣). وفي هذا الشأن يقول الغزالي: «خطاب القرآن عالمي ورسالته خاصة وله بعد في الزمان الماضي والحاضر والمستقبل، وله بعد في المكان بحيث يشمل العائم كله» (١٤). ومن هنا صيغ التشريع صياغة عامة تشمل جميع قضايا الإنسان وحاجاته المتجددة الحاضرة منها والمستقبلية وجاءت معظم النصوص عامة في اللفظ والمعنى، حتى المشتهرة تلك القاعدة الأصولية، «العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» (١٥)، ومنشادة أن سبب النزول لا يقيّد معاني النصوص ودلالاتها بمن نزل فيها، بل تتعدى لتشمل غيرهم ممن لم ينزل فيهم الخطاب. كما جاءت نصوص القرآن في معظمها ظنية الدلالة تحمل أكثر من معنى، ليتمتع تفسيرها بما يتلاءم والمقصود من عائليته الخطاب، فلا تعترضها الظواهر الجغرافية، ولا الأحداث التاريخية، ولا التطور الحضري البشرية، وهذا ما يشهد له لفظه الإسلامي، فإنه ذو نزعة عائليّة. وإن

## ما زال الخطاب القرآني حتى اليوم قادراً على إعادة ذلك الدور المفقود



• عائليّة الإسلام لا تفرق بين انسان وآخر

وما زال الخطاب القرآني إلى اليوم قادراً على إعادة ذلك الدور المفقود لأن الله الذي كتب له العائليّة حفظه من التبدل والتحريف الذي أصاب الكتب السابقة، وإذا كان القصص ما وصلت إليه الحضارة المعاصرة هو إقرار التعمد، فإن عائليّة الخطاب الإسلامي عيبت وتعمل على استيعاب التعمد بعد الإقرار به، ودفعه باتجاه العائليّة. ليتحول إلى عامل دفع في إطار تنوع بشري إيجابي يهيمن عليه ألوار الهدى وبين الحق (١٧).

كتب بلغة العرب وفي أرضهم، (لا أن مضامينه عائليّة: تكون المصدر الأول لهذا اللفظ عالمي الترمّة، إلا وهو القرآن. وقد حكم هذا اللفظ شعوباً شتى في بقاع الأرض، فلم يعجز عن الوقاء بحاجاتها) (١١). فالخطاب القرآني بعائليته استطاع استيعاب الحضارات القديمة، بما تحويه من ثقافات متنوعة وأديان متعددة وأعراق مختلفة، ولم يكن ذلك متاعاً ولا حائلاً أمام تلك الشعوب من الاندماج مع المسلمين والتعايش معهم مع الحفاظ على خصوصياتهم الدينية والثقافية.

### الهوامش

١. محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتوير، دار الأوسية للنشر، تونس، ط ١٩٨١م، (١٦٥/٢٠).
٢. ابن عاشور: المرجع نفسه، (٣٢٢/٢٧).
٣. ابن عاشور: المرجع نفسه، (١٦٢/٢٥).
٤. ابن عاشور: المرجع نفسه، (٢٧٦/٣٦).
٥. ابن عاشور: مقاصد الشريعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص: ١٣.
٦. سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٨م، الجزء الثالث، (٢٥١/١١).
٧. سيد قطب: المرجع نفسه، الجزء الثالث، (٢٥١٨/١٤).
٨. دة جابر العلواني: أعاد عائليّة من فكر ومعارسات الحركات الإسلامية المعاصرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فوجينيا، أمريكا، ط ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦م، ص: ١٣.
٩. سيد قطب: المرجع السابق، الجزء الخامس، (٢٥١٨/١٩).
١٠. سيد قطب: المرجع السابق، الجزء الثالث، (١٢٧٩/٩).
١١. ابن عاشور: التحرير، (١٦٧/١٧).
١٢. يوسف القرضاوي: الخصائص العامة في الإسلام، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، ص: ٩٥، ٩٧.
١٣. أبو القاسم حاج أحمد: المنهجية المعرفية في القرآن العظيم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فوجينيا، أمريكا، ط ١٤١١ هـ، ١٩٩١م، ص: ٢٩، ٣١، ٣٢.
١٤. محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن، دار الانفاضة، الجزائر، ص: ٢٨١.
١٥. محمد صديق خان: نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، دار التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ١٤٠١ هـ، ١٩٨١م، ص: ٢٦، ٤٨.
١٦. محمد بن علي الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والتدابة من علمي التفسير، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ١٣٢٢ هـ، ١٩٦٢م، (١٣١/١)، (١٥٦/٢)، (١٥٦/٢).
١٧. القرضاوي: الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩م، ص: ١٣، ١٤.
١٨. دة جابر العلواني: المرجع السابق، ص: ٥٧.